مكة حرسها الله تعالى/١٤٤٥هـ

سلسلة الرسائل (٤٦)

طريق النور والظلمة

للشيخة أم عبد الله بنت الشيخ
مقبل بن هادي الوادعي
حفظها الله تعالى

دار الوداعية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله ونبيه محمد الأمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد:

فقد ذكر الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى انقسام الطرق إلى قسمين: ظلمة، ونور، قال سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [فاطر:١٩-٢٢].

وقد ذكر سُبحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه الآية أضدادًا، وهذه طريقة من طرق القرآن البلاغية، يذكرها الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى؛ للدلالة على توحيده وقدرته، ولضرب الأمثال، فهنا يقول ربنا سُبحَانَهُ: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ ﴾ الأعمى الذي فقد بصره، والبصير الذي يبصر، فكما نعلم يقينًا أنه لا يستوي الأعمى والبصير، فكذلك لا يستوي العالم والجاهل، وكما قال سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ [الزمر].

﴿ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ ﴾ لا يستوي الظلمة ولا النور، الظلمة وهي: الكفر والشرك، النور: الهدى والعلم والايمان.

﴿ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ ﴾ كما لا يستوي الظل والحرور وهو: الحرُّ، فكذلك لا يستوي الظل وهو الجنة، كما قال تَعَالَى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾، والحرور، وهي النار، وكما قال ربنا سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾[الحشر: ٢٠].

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾[1]، فكما لا يستوي الحي والميت كذلك لا يستوي المؤمن والكافر، المؤمن حي والكافر ميت وإن كان يمشي بقدميه، وإن كان بروحه فهو ميت موتًا معنويًّا، وكما قال سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ [الروم: ١٩]. ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾ أي: المؤمن من الكافر، والدجاجة من البيضة، البيضة تعتبر ميتة، الله عز وجل يخرج الدجاجة

---

(١) قال ابن القيم في «بدائع الفوائد»(٤/ ١٣١٤): فالأعمى والبصيرُ: الجاهلُ والعالم، والظلمات والنُّور: الكفر والإيمان، الظل والحرور: الجنة والنار، الأحياء والأموات: المؤمنونَ والكفَّار.

الحية من الميت وهي البيضة، والإنسان من النطفة، والسنبل من الحبة اليابسة، وعكس ذلك وضده في قوله تَعَالَى: ﴿ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ ﴾(٢).

وهذا كالكافر فإنه ميت، من وصفه أنه ميت، أي: ميت القلب لا حياة في قلبه ولا نور في قلبه، فهذه من الأضداد التي يذكرها الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، والتي من ضمنِهَا أن الطريق قسمان: ظلمة، ونور؛ لينتبه من لديه عقل للطريقة التي توصله إلى النور، فيسلكها ويلتمسها ويحرص عليها، ويحذر طريق الظُلَمِ.

وإن أعظم طرق النور: الإسلام، قال سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الزمر]. ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾، أي: وسع الله صدره للإسلام، من أسباب انشراح الصدر وراحة البال دين الإسلام، وأما الكفر فهو من أسباب الضيق والوحشة وظلمة القلوب والحياة، وكما قال تَعَالَى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ

---

(٢) وقد ذكر أمثلةً لذلك الحافظ ابن كثير في «تفسيره»(٦/٣٠٣) في تفسير قوله تَعَالَى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾، وقال: هُوَ مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ قُدْرَتِهِ عَلَى خَلْقِ الْأَشْيَاءِ الْمُتَقَابِلَةِ.

وَهَذِهِ الْآيَاتُ الْمُتَتَابِعَةُ الْكَرِيمَةُ كُلُّهَا مِنْ هَذَا النَّمَطِ، فَإِنَّهُ يَذْكُرُ فِيهَا خَلْقَهُ الْأَشْيَاءَ وَأَضْدَادَهَا؛ لِيَدُلَّ خَلْقُهُ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ، فَمِنْ ذَلِكَ:

إِخْرَاجُ النَّبَاتِ مِنَ الْحَبِّ، وَالْحَبِّ مِنَ النَّبَاتِ، وَالْبَيْضِ مِنَ الدَّجَاجِ، وَالدَّجَاجِ مِنَ الْبَيْضِ، وَالْإِنْسَانِ مِنَ النُّطْفَةِ، وَالنُّطْفَةِ مِنَ الْإِنْسَانِ، وَالْمُؤْمِنِ مِنَ الْكَافِرِ، وَالْكَافِرِ مِنَ الْمُؤْمِنِ.

صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [الأنعام].

فنعمة عليك أيتها المسلمة؛ إذ مَنَّ الله عليك بنور الإسلام، ﴿ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ فاعتزي بدينك دين الإسلام، ولا تتخلى عنه، أو تتساهلي في الالتزام بأوامره واجتناب نواهيه، فإنه عزك، لا عزة لنا إلا بدين الإسلام، فهنا ربنا سُبحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾، فمن أعظم أسباب انشراح الصدر الإسلام، وأعظم منَّة على العبد نعمة الإسلام، أعظم من عافية البدن، العافية عافية الدين، يقول الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحجرات]. فهذه أعظم نعمة: نعمة الإسلام، عافية البدن من النعم الجليلة، لكن نعمة الإسلام أفضل وأعلى؛ لأن فيها السعادة، فيها الفوز بالجنة والنجاة من النار، والسلامة من كل مكروه ومرهوب.

ومن طريق النور: العلم النافع، يقول سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [الأنعام: ١٢٢]. فالعلم نور

يستضاء به، العلم يقودك إلى الخير، وإلى طريق الجنة، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ» رواه الإمام مسلم (٢٦٩٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فالعلم نور ينور لك الطريق، ويبصرك بالحق من الباطل، وبالهدى من الضلال، ويبصرك بطريق الخير وطريق الشر، يبصرك بمنافعك ومضارك؛ لتسلكي الطريق القيِّمَة، وتتركي الطريق الضارة السقيمة، وهذا من فضائل العلم: علم الكتاب، والسنة.

وفيه تحفيز على الاهتمام بالعلم الشرعي، فلا تَشغل العلومُ الدنيوية الفانية عن العلم النافع الشرعي؛ ولهذا سمى الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى كتابه نورًا، قال سُبحَانَهُ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤ ﴾ [النساء: ١٧٤]. وقال سُبحَانَهُ: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٨ ﴾ [التغابن:٨].

هذا حث من الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى لنا أن نتبع هذا النور الذي أكرمنا به وهو القرآن، وهو ما جاء به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

فليكن اهتمامنا- واهتمام كل امرأة صالحة تريد الله والدار الآخرة- بكتاب ربها، تلاوة وعملًا وتفقهًا فيه، و سنة نبيها محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وهذا أعظم ما تُصرفُ فيه الأوقات.

فهذا طريق النور، لا طريق الظلمة والشقاوة، القرآن الكريم سعادتك، القرآن الكريم حصن لك من الشيطان الرجيم، القرآن الكريم شفاء لقلبك ولأمراضك، كما قال سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧﴾ [يونس].

فينبغي أن يكون هناك وردٌ من القرآن الكريم يومي، تحرص عليه كل واحدة من البنات والأمهات ولا تفرط فيه، فهذا من أسباب سعادتك، وزيادة إيمانك، ويقربك إلى ربك سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

هذا الكتاب الذي أنزله الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى نجد من أوصافه أنه نور، بخلاف التوراة وصفها الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى في بعض المواضع أنها نور، كما قال تَعَالَى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ﴾[المائدة: ٤٤]، وفي بعضها وصفها بأنها ضياء، ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ وَضِيَآءٗ وَذِكۡرٗا لِّلۡمُتَّقِينَ ٤٨﴾ [الأنبياء:٤٨].

قال ابن رجب رَحِمَهُ الله في «جامع العلوم والحكم»(٢/ ٢٥): ولكن الغالب على شريعتهم الضياءُ؛ لما فيها مِنَ الآصار والأغلال والأثقال.

ووصف شريعةَ محمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنَّها نورٌ؛ لما فيها من الحَنيفيَّةِ السمحة. اهـ.

فوصف الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى التوراة في هذه الآية بأنها ضياء؛ لأن التوراة فيها شيء من الصعوبة في الأحكام والمشاق، ومن ذلك أمر الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى للذين عبدوا العجل أن يقتلوا أنفسهم: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ ﴾[البقرة]، ﴿ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾، أي: يقتل بعضكم بعضًا، ليس المراد أن كل واحد يقتل نفسه، ولكن يقتل بعضكم بعضًا بإجماع المفسرين، فكان هذا من الأغلال والآصار التي وصف الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى التوراة والإنجيل بها ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾[الأعراف: ١٥٧].

ولهذا يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في وصف الصبر: «وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ»(٣)؛ لأن الصبر فيه حرارة، الصبر على المصائب وعلى الشدائد

(٣) رواه مسلم (٢٢٣) عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ.

فيه حرارة، فيه ألَمٌ ومشقة، فوصفه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بأنه ضياء، بينما الصلاة قال عنها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «وَالصَّلَاةُ نُورٌ»، وربنا سُبحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝٦ ﴾ [يونس]. الشمس وصفها الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى بأنها ضياء؛ لأن فيها حرارة، ضوء مع حرارة، وأما القمر قال الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾؛ لأنه ضوء من غير حرارة.

فالقرآن يصفه ربنا سُبحَانَهُ وَتَعَالَى بأنه نور، فهلَّا سلكنا هذا النور، واجتهدنا في حفظه وفهمه وتعلمه، واجتهدنا في التخلق بأخلاقه والعمل به، فلنحرص أن نكون على نور، وحياتنا نور، وتصرفاتنا نور، وأقوالنا نور، وأفعالنا نور، وبفضل الله عز وجل من تمسك بهذا القرآن فإنه يكون على نور وخير.

ومن طرق النور: ذِكْرُ الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝٢٨﴾ [الرعد]. وكما قال ابن القيم رحمه الله تَعَالَى في «الوابل الصيب»: إنه يكسو الوجه نضرة في الدنيا ونورًا في الآخرة، فالذاكرون أنضر الناس وجوهًا في الدنيا، وأنورهم في الآخرة.

فليكن ذكر الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى على ألسنتنا من التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل والاستغفار ولا حول ولا قوة إلا بالله، وترديد القرآن على ألسنتنا، ونكثر من ذكر الله عَزَّ وَجَل، نحافظ على الأوراد من الأذكار، وبذلك نكون على خير بإذن الله سُبحَانَهُ، ومن الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ٣٥﴾[الأحزاب].

ومن رحمة الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى أنه جعل الذكر أيسر شيء، فهو أيسر حركات اللسان، ممكن يذكر الإنسان ربه وهو مضطجع، وهو ماشي، وهو في السيارة، وهو جالس، يذكر الله في كل أوقاته، الذكر ميسر، وإنما الذي أحرمنا الغفلة والكسل، فالذكر أخواتي في الله شأنه عظيم -والله- في الثبات، وفي سعادة القلب ونور القلب وثباته، وفي التحصن من الشيطان الرجيم، وهو من أسباب ذكر الله عز وجل، قال الله عز وجل ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢ ﴾ [البقرة]. ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾، مَن ذكر الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى ذكره الله عند شدته، في حال كربته، عند فقره. ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢﴾.

ومن طرق النور: تقوى الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، يقول الله تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩ ﴾ [الأنفال].

﴿ فُرۡقَانٗا ﴾ أي: تفرقون به بين الحق والباطل، ونحن في زمن الفتن اختلط فيه الحق بالباطل، ودعاة الهدى بدعاة الضلال- على كثير من الناس إلا من رحم الله-، وهذا بلاء عظيم، قال والدي رَحِمَهُ اللهُ في «خطبة جمعة»: أعظم مصيبة عليك أن تتقلَّبَ عليكَ الحقائق، وأن يُطْبَعَ على قلبِك. اهـ.

فالتقوى نور يجعله الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى للمتقي، نور يمشي به، وكما قال الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٨ ﴾ [الحديد: (٢٨)]، ﴿ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ ﴾ أي: نصيبين في الدنيا والآخرة، وقد يضاعف الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى لمن يشاء، وقد ذكر الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه الآية الأجر بلفظ الكفل، وهو النصيب، والغالب أن الكفل يكون في الشر ﴿ مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتًا ٨٥ ﴾[النساء]، هذا هو الغالب أن الكفل

يكون في الشر، ولكن قد يكون في الخير كما في هذه الآية ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ ﴾.

وهذا أحد جزاء تقوى الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى الأجور، ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ ﴾ في دار الدنيا والآخرة، يمشي على نور، وفي الآخرة نور حسي، وفي الدنيا نور معنوي يمشي على الصراط المستقيم، يتصرف كما يريد الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى وبما يرضي الله عز وجل، يجعل الله له نورًا في قلبه، فهذا نور معنوي، وفي الآخرة نور حسي، وفي الآخرة ما فيه نور إلا نور الأعمال الصالحة، فهو يمشي في نور وإضاءة أعماله في عرصات يوم القيامة، ذلك اليوم الذي يجب أن نستعدَّ له، وكل ما هو آت قريب، ذلك اليوم الذي يجب أن نستيقظ له من غفلتنا ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ ﴾[الأنبياء].

فالمتقي يوم القيامة من جزاء الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى له أنه يمشي ومعه نور، في عرصات يوم القيامة وعلى الصراط، يمشي ومعه إضاءة، إضاءة أعماله الصالحة.

قال ابن القيم في «التبيان في أقسام القرآن» (٥٨): فضمن لهم سبحانه بالتقوى ثلاثة أمور:

أحدها: أعطاهم نصيبين من رحمته، نصيبًا في الدنيا ونصيبًا في الآخرة، وقد يضاعف لهم نصيب الآخرة، فيصير نصيبين.

الثاني: أعطاهم نورًا يمشون به في الظلمات.

الثالث: مغفرة ذنوبهم، وهذا غاية التيسير، فقد جعل سبحانه التقوى سببًا لكل يسر، وترك التقوى سببًا لكل عسر. اهـ.

ويقول سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ۖ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الحديد]. ﴿ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ﴾أي: اطلبوا نورًا، ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ ﴾ السُّور: الحائط.

ينقطع النور عن المنافقين؛ لأنهم من أوصافهم الارتياب، عندهم ريبة- الريبة: الشك-، فكوني على يقين أن هذا الدين دين الله الحق، وأن القرآن حق، وأن نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ حق مرسل من عند الله سُبحَانَهُ

وَتَعَالَى، لا يكون عندنا أي ريبة في أنه حق من عند الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، فالارتياب في هذا الخير من صفات المنافقين ﴿ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ١٤ ﴾، فكوني على يقين، ولا يحصل عندك شك ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ١٥ ﴾[الحجرات:١٥]، أي: لم يشكوا.

وقال الصديق أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما عند ابن ماجه في «سننه» (٣٨٤٩) بسند حسن: «سَلُوا اللهَ المُعَافَاةَ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يُؤْتَ أَحَدٌ بَعْدَ اليَقِينِ خَيْرٌ مِنَ المُعَافَاةِ».

فمن عقيدتنا أن نكون على يقين من ديننا وأنه دين الله الحق.

إذن من طرق النور: أن نتقي الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، إذا أردنا أن الله عز وجل يجعل لنا نورًا في دار الدنيا وفي دار الآخرة، والكفار في ظلمة، والمؤمن ما شاء الله في نور أعماله، وهذه هي العافية الحقيقية، عافية الدين؛ ولهذا روى البخاري (٤٧٥٣) من طريق ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ، قَالَ: اسْتَأْذَنَ ابْنُ عَبَّاسٍ قَبْلَ مَوْتِهَا عَلَى عَائِشَةَ وَهِيَ مَغْلُوبَةٌ، قَالَتْ: أَخْشَى أَنْ يُثْنِيَ عَلَيَّ، فَقِيلَ: ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمِنْ وُجُوهِ المُسْلِمِينَ، قَالَتْ: ائْذَنُوا لَهُ، فَقَالَ: كَيْفَ تَجِدِينَكِ؟ قَالَتْ: بِخَيْرٍ إِنِ اتَّقَيْتُ، قَالَ: «فَأَنْتِ بِخَيْرٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، زَوْجَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَمْ يَنْكِحْ بِكْرًا غَيْرَكِ، وَنَزَلَ عُذْرُكِ مِنَ السَّمَاءِ»،

وَدَخَلَ ابْنُ الزُّبَيْرِ خِلَافَهُ، فَقَالَتْ: دَخَلَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَأَثْنَى عَلَيَّ، وَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ نِسْيًا مَنْسِيًّا.

«وَهِيَ مَغْلُوبَةٌ» أي: في الاحتضار.

«بِخَيْرٍ إِنِ اتَّقَيْتُ» سبحان الله! هي في حالة الاحتضار، في أشد كربة، في أشد الضعف، في سكرات الموت، وتقول: بخير، هذا يدل على أن العافية عافية الدين، ليست العافية الحقيقية عافية البدن.

«فَأَنْتِ بِخَيْرٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، زَوْجَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَمْ يَنْكِحْ بِكْرًا غَيْرَكِ، وَنَزَلَ عُذْرُكِ مِنَ السَّمَاءِ» جاء لها عبد الله بن عباس بكلمات؛ ليقوي إيمانها، ويرفع عندها حسن الظن بالله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

«زَوْجَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» أي: كما كنت زوجة له في الدنيا فستكونين زوجًا له في الآخرة.

«وَنَزَلَ عُذْرُكِ مِنَ السَّمَاءِ» أي: نزل فيها البراءة من تهمة الفاحشة، فهذا معدود في شرفها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى برأها مما اتهمت به وأنزل الله فيها آيات تتلى، هذا يدل على شرفها وعناية الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى بها، وقد قالت رضي الله تَعَالَى عنها: «وَلَأَنَا أَحْقَرُ فِي نَفْسِي مِنْ أَنْ يُتَكَلَّمَ بِالقُرْآنِ فِي

أَمْرِي، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللَّهُ» (٤).

فالشاهد حفظكن الله: فضل تقوى الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

وتقوى الله يكون بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، تقوى الله ما هي على اسمِهَا مكونة من بعض الحروف، إنها تشمل الدين كله: امتثال الأوامر، وترك النواهي، الانزجار عن النواهي، هذا ما يحمله معنى تقوى الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

ومن طرق النور: الصدقة؛ لأنها من جملة الأعمال الصالحة التي حث الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى عليها، والصدقة التي تكون من مال طيب؛ لأن الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى طيب ولا يقبل إلا طيبًا.

يقول الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى في سياق الثناء على المتصدقين: ﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾[الحديد]، فالصدقة هي من أسباب النور، ومن أسباب دفع البلاء ودفع المحن، ومن أسباب الظل يوم القيامة؛ لأن المتصدق يمشي في ظل صدقته يوم القيامة، الشأن الإخلاص أن يتصدق وهو مخلص، نسأل الله أن يرزقنا الإخلاص، يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ امْرِئٍ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ حَتَّى

(٤) رواه ا البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

يُفْصَلَ بَيْنَ النَّاسِ»[٥]. فالصدقة نور، ويدل له أيضًا قول نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ» والبرهان هُوَ الشُّعَاعُ الَّذِي يَلِي وَجْهَ الشَّمْسِ، كما قال ابن رجب رَحِمَهُ الله تَعَالَى. ويدل قوله: «وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ» أن الصدقة برهان على صدق صاحبها؛ لأنه ما يخرج الصدقة إلا وهو يحب الخير ويريد الجنة؛ لأن النفس شحيحة بالمال ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة: ١٢٨]. ولا يخرج الصدقة إلا من عنده إيمان «وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ»، إلا من تسلَّط عليه الشيطان، نعوذ بالله منه.

وفي «البدر الطالع» للشوكاني:[٦] أن رجلًا من الزرعة، وَكَانَ ذا دين وَصدقَة، فاتفق أَنه بنى مَسْجِدًا يصلي فِيهِ، وَجعل يأتي ذَلِك الْمَسْجِد كل لَيْلَة

---

(٥) رواه الإمام أحمد (٢٨/٥٦٨) عن عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ، وهو في «الصحيح المسند» (٩٢٨) لوالدي رَحِمَهُ الله.

(٦) قال الشوكاني رَحِمَهُ اللهُ في «البدر الطالع»(١/٤٩٢): علي بن مُحَمَّد بن أَحْمد بن علي بن يحيى البكري الزيدي أحد الْعلمَاء اليمنيين الْمُحَقِّقين لَهُ مصنّفات مِنْهَا: «شرح مُقَدّمَة بَيَان ابْن مظفر»، وَ«شرح منهاج القرشي»، وَ«شرح مُقَدّمَة الأزهار»، وَكَانَ بعض أهل الْعلم يفضله على عبد الله النجري الْمُتَقَدّم ذكره، وَقد كتب إِلَيْهِ الإمام عز الدَّين بن الْحسن كلَامًا في مسألة الإمامة، وَأجَاب عَنهُ بِجَوَاب هُوَ مَوْجُود فِي فَتَاوَى الإمام عز الدَّين، وَكَانَ مُتَّصِلًا بالإمام المطهر بن مُحَمَّد ابْن سُلَيْمَان، وَقَائِمًا بِكَثِير من أُمُور خِلَافَته، قَالَ صَاحب «مطلع البدور» وَهُوَ الذي حكى صفة الْكتاب الْوَاصِل إِلَى الإمام المطهر من الْفَقِيه مُحَمَّد بن الأصم: أَنَّهَا اتفقت فِي زمن الإمام الْمَذْكُور قصَّة عَجِيبَة ونكتة غَرِيبَة فِي بلد شامي الحرجة تسمى الْحمرَة.

وَذَلِكَ أَنه كَانَ فِيهَا رجل من الزرعة.. الخ ما ذُكِرَ أعلاه.

بالسراج وبعشائه، فإن وجد فِي الْمَسْجِد من يتَصَدَّق عَلَيْهِ أعطَاهُ ذَلِك الْعشَاء، وإلَّا أكله وَصلى صلَاته، وَاسْتمرَّ على ذَلِك الْحَال، ثمَّ إنها اتفقت شدَّة ونضب مَاء الْآبَار وَكَانَت لَهُ بير، فَلَمَّا قَلَّ مَاؤُهَا أَخذ يحتفرها هُوَ وَأَوْلَاده، فخربت تِلْكَ البير، وَالرجل فِي أَسْفَلهَا خرابًا عَظِيمًا، حَتَّى إنه سقط مَا حولهَا من الأرض إليها، فأيس مِنْهُ أَوْلَاده، وَلم يحفروا لَهُ، وَقَالُوا: قد صَار هَذَا قَبره، وَكَانَ ذَلِك الرجل عِنْد خراب الْبِئْر فِي كَهْف فِيهَا، فَوَقَعت إلى بَابه خَشَبَة منعت الْحِجَارَة من أَن تصيبه، فأقام فِي ظلمَة عَظِيمَة، ثمَّ إنه بعد ذَلِك جَاءَهُ السراج الذي كَانَ يحملهُ إلى الْمَسْجِد، وَذَلِكَ الطَّعَام الذي كَانَ يحملهُ كل لَيْلَة، وَكَانَ بِهِ يفرق مَا بَين اللَّيْل وَالنَّهَار، وَاسْتمرّ لَهُ ذَلِك مُدَّة سِتّ سِنِين، وَالرجل مُقيم فِي ذَلِك الْمَكَان على تِلْكَ الْحَال، ثمَّ إنه بدا لأولاده أَن يحفروا الْبِئْر؛ لإعادة عمارتها، فحفروها حَتَّى انْتَهوا إلى أَسْفَلهَا، فوجدوا أباهم حَيًّا، فَسَأَلُوهُ عَن حَاله، فَقَالَ لَهُم: ذَلِك السراج وَالطَّعَام الذي كنت أحمل إلى الْمَسْجِد يأتيني على مَا كنت أحملهُ تِلْكَ الْمدَّة.

فعجبوا من ذَلِك، فَصَارَت قَضِيَّة موعظة يتوعظ بهَا النَّاس فِي أسواق تِلْكَ الْبِلَاد. اهـ.

وهذه كرامة عظيمة لذلك الرجل، صار في حفظِ الله له والتراب محيط به من جميع الجهات، ويصل إليه الرزق والإضاءة له، وخرج بسلامة وعافية مع طول المدة، وانتشر خبره بين الناس وصار أحاديثهم عن كرامة الله له، فالصدقة تدفع المكاره والمصائب والبلاء.

ومن طرق النور: الصلاة.

يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ»، قال ابن رجب في «جامع العلوم والحكم»(٢/ ٥): هَذِهِ الْأَنْوَاعُ الثَّلَاثَةُ مِنَ الْأَعْمَالِ أَنْوَارٌ كُلُّهَا.

والصلاة تشمل الفريضة والنافلة، قال الشيخ ابن عثيمين في «شرح الأربعين النووية»(٢٢٢): أي صلاة الفريضة والنافلة نور، نور في القلب، ونور في الوجه، ونور في القبر، ونور في الحشر؛ لأن الحديث مطلق، وجرِّب تجد. اهـ.

فهذا أيضًا من طرق النور، نور حسي ونور معنوي، في قلبك، يكون عندك نور، تؤمنين بالقدر خيره وشره-الله يجعلنا من المؤمنين بالقدر-، يكون عندك

اندفاع للخير، أي خير تسمعين به في دينك الإسلامي تحرصين عليه؛ لأن عندك نورًا في قلبك.

فينبغي أختي في الله أن نستشعر بأن الصلاة نور؛ ليكون هذا حافزًا لنا على الإقبال على صلاتنا، ونبذ شواغل الدنيا، والإقبال على الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى بقلوبنا، الإقبال على الله في صلاتنا بقلوبنا، ليس يا أختي في الله بأبداننا عبارة عن جثة من غير قلب حي، فالصلاة نور؛ لهذا كانت راحة للقلوب، احذري أن تقومي للصلاة ولا تجدي حلاوة الصلاة وانشراح صدرك للصلاة، روى أبو داود (٤٩٨٥) عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: لَيْتَنِي صَلَّيْتُ فَاسْتَرَحْتُ، فَكَأَنَّهُمْ عَابُوا عَلَيْهِ ذَلِكَ، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «يَا بِلَالُ أَقِمِ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا».

ويقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا النِّسَاءُ وَالطِّيبُ، وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»(٧).

الصلاة إذا حرصنا عليها وحافظنا عليها، فنحن نسلك طريقًا من طرق النور العظيمة، والصلاة هي الركن الثاني من أركان الإسلام.

---

(٧) رواه النسائي (٣٩٣٩) عَنْ أَنَسٍ، وهو في «الصحيح المسند» (١٠٠) لوالدي رَحِمَهُ الله.

ومن طرق النور: الصبر.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ» الصبر عند الشدائد، عند المكاره، عند المصائب والآلام، كما قال الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان]. وقال تَعَالَى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الحج].

و دار الدنيا دار المصائب والمحن، لم يخلقنا الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى في دار نعيم حتى نَهْنأَ بها، هذه الدار الدنيا ما هي دار نعيم، لا نحلم بأننا ننعم فيها ولا نذوق فيها مرارة، دار مليئة بالآلام، دار مليئة بالمصائب، وقد قال سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾ [البلد:٤]، دار سفر، قال ابن القيم رَحِمَهُ الله في «الفوائد»(١٩٠): النَّاس مُنْذُ خلقُوا لم يزَالُوا مسافرين، وَلَيْسَ لَهُم حط عَن رحالهم إِلَّا فِي الْجنَّة أَو النَّار.

ومن طرق النور: اتباع ما جاء به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

قال ابن القيم في «اجتماع الجيوش الإسلامية»: وَهَذَا تَرَى صَاحِبَ اتِّبَاعِ الْأَمْرِ وَالسُّنَّةِ قَدْ كُسِيَ مِنَ الرُّوحِ وَالنُّورِ وَمَا يَتْبَعُهُمَا مِنَ الْحَلَاوَةِ وَالْمَهَابَةِ وَالْجَلَالَةِ وَالْقَبُولِ مَا قَدْ حُرِمَهُ غَيْرُهُ.

فاتبعي كتاب ربك وسنة نبيك محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ؛ لتكوني على نور.

هذا النور الذي يسعى لإطفائه أعداء الله من يهود ونصارى وملاحدة،

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾[التوبة].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ الله في «تفسيره»(٤/١١٩): يَقُولُ تَعَالَى: يُرِيدُ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ أَنْ يُطْفِئوا نُورَ اللَّهِ، أي: ما بعث بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، بِمُجَرَّدِ جِدَالِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ، فَمَثَلُهُمْ فِي ذَلِكَ كَمَثَلِ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُطْفِئَ شُعَاعَ الشَّمْسِ أَوْ نُورَ الْقَمَرِ بِنَفْخِهِ، وَهَذَا لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ.

واحذري أختي في الله طرق الظلمات.

وإن أعظم طرق الظلمات:

الكفر والشرك والعياذ بالله، الشرك بالله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى أن الكافر يتقلب في عشر ظلمات، قال في «اجتماع الجيوش»: وَالْخَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ الرَّسُلِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ وَمُتَابَعَتِهِمْ يَتَقَلَّبُونَ فِي عَشْرِ ظُلُمَاتٍ:

ظُلْمَةُ الطَّبْعِ، وَظُلْمَةُ الْجَهْلِ، وَظُلْمَةُ الْهَوَى، وَظُلْمَةُ الْقَوْلِ، وَظُلْمَةُ الْعَمَلِ، وَظُلْمَةُ الْمُدْخَلِ، وَظُلْمَةُ الْمُخْرَجِ، وَظُلْمَةُ الْقَبْرِ، وَظُلْمَةُ الْقِيَامَةِ، وَظُلْمَةُ دَارِ الْقَرَارِ. فَالظُّلْمَةُ لَازِمَةٌ لَهُمْ فِي دُورِهِمُ الثَّلَاثِ.

هذا الكافر الذي الحشرات الرديئة أفضل منه وأكرم منه، كما قال الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ٢٢ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣ ﴾ [الأنفال]. فلا يُعجب بالكافر مهما بلغ ذكاؤه أو أخلاقه أو جماله، هذا من حطب جهنم، والعياذ بالله.

إذن أخواتي بالله نعوذ بالله من أن نسلك طريق الظلمات ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ

يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ [البقرة: ٢٥٧].

ومن طرق الظلمات: المعاصي، ويظلم القلب بقدر ما تتراكم فيه المعاصي، تظلم الحياة، يظلم البيت؛ بسبب المعاصي.

ومن طرق الظلمات: الظلم، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ «الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيَامَةِ» (٨).

ونعوذ بالله من أن نَظلِم أو نُظلَم.

فاحرصي حفظك الله أن تكون حياتك نورًا، وتصرفاتك نورًا بتوفيق الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

وادعي الله وتضرعي إليه أن يرزق النور ويجنبك طريق الظلمات، وقد كان من أدعية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا، وَفِي بَصَرِي نُورًا، وَفِي سَمْعِي نُورًا، وَعَنْ يَمِينِي نُورًا، وَعَنْ يَسَارِي نُورًا، وَفَوْقِي نُورًا، وَتَحْتِي نُورًا، وَأَمَامِي نُورًا، وَخَلْفِي نُورًا، وَاجْعَلْ لِي نُورًا» (٩).

---

(٨) رواه البخاري (٢٤٤٧)، ومسلم (٢٥٧٩) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٩) رواه البخاري (٦٣١٦)، ومسلم (٧٦٣).

هذا الحديث علق عليه ابن القيم في «اجتماع الجيوش الإسلامية»، وقال: فَطَلَبَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النُّورَ لِذَاتِهِ وَلِأَبْعَاضِهِ وَلِحَوَاسِّهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ وَلِجِهَاتِهِ السِّتِّ. اهـ.

نور من جميع الجهات الست، ونور في جميع جوارحه، حتى ذاته يجعلها الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى نورًا.

وإنَّ من رزقه الله هذا النور في جميع أعضائه، ومن جميع جهاته يكون موفقًا، ويكون من أولياء الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وييسر الله له سُبحَانَهُ طريق الخير، قال تَعَالَى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ ﴾ [الليل].

فاحرصي على طرق النور، وابتعدي عن طرق الظلمة، واستعيني بالله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وكلما أقبل الإنسان على ربه ازداد نوره وخيره وبِرُّهُ.

ونحن بحاجة شديدة أن نمشي بنور: في عقيدتنا، أقوالنا، أفعالنا، عبادتنا، تصرفاتنا، دخولنا، خروجنا، حياتنا.

بحاجة أن نبتعد عن طريق الظلمات، كالشركيات والبدعيات والخرافات والشبهات.

قال السعدي رَحِمَهُ الله في «تفسيره»(٦٨٨): فإذا علمت المراتب، وميزت الأشياء، وبان الذي ينبغي أن يتنافس في تحصيله من ضده، فليختر الحازم لنفسه، ما هو أولى به وأحقها بالإيثار. اهـ.

التمسي النور من الله تَعَالَى لا من غيرِهِ، قال تَعَالَى: ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾[النور].

أسال الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى أن يرزقنا وإياكن طريق النور، نسأل الله أن يذلل لنا طرق النور، وأن يعيذنا من طرق الظلمات.

وأسال الله أن يجمعنا في أعلى جنات الخلد عند مليك مقتدر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، والحمد لله رب العالمين

تم نشر هذه المحاضرة ولله الحمد والمنة.

يوم الأربعاء الموافق ١٥ / من شهر جمادى الأولى / لعام ١٤٤٥ للهجرة النبوية

على صاحبها الصلاة والسلام.